﴿ مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ﴾

وكلمة «مسوَّمة» أى: مُعلَّمة ، وكأن كل حجر قد تم توجيهه إلى صاحبه ، فهذا الحجر يذهب إلى فلان ، وذاك إلى فلان ، مثل الصواريخ الموجهة إلى البلاد ، ولكن الدقة فى هذه الحجارة أن كل حجر يعرف على من بالتحديد سوف ينزل بالعذاب ، وقد جعلها الحق سبحانه لتعذيب المكين ، أى: الإنسان ، ولا تدمر البلاد .

وهى مُرتَّبة ؛ لأن الحق سبحانه قال :

﴿ .. سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ[1] ﴿٨٢﴾ ﴾ [هود]

ووردت كلمة (سجيل) أيضاً فى قول الحق سبحانه :

﴿ .. طَيْراً أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ ﴾ [الفيل]

ويُنهى الحق سبحانه الآية بقوله:

﴿ .. وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ﴾ [هود]

والظالمون هنا مقصود بهم الكافرون برسالة الحق - سبحانه وتعالى - التى تتابعت فى الموكب الرسالى وخاتمها هو محمد ﷺ .

ونحن نعلم أن القصص القرآنى قد نزل تسلية وثباتاً بيقين لرسول الله ﷺ وتذكرة بالأسوة :

﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ .. ﴿١٢٠﴾ ﴾ [هود]

---

(١) نضد الشيء ينضده: جعل بعضه فوق بعض ، أو بجانب بعض فى نظام ، فهو منضود ونضيد ، أى: منظم . قال تعالى: ﴿ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ ﴾ [ق] أى: مرصوص بنظام. ومثله قوله تعالى: ﴿ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الواقعة] . أما قوله تعالى: ﴿ .. مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ ﴾ [هود] أى: متتابع منتظم السقوط عليهم. [القاموس القويم].

وتحكى القصص المعارك التى قامت بين كل رسول مُؤيَّد بمعجزة من الله ، وبين المنكرين له والكافرين به ، وقد انتهت كل هذه المعارك بنصرة الرسول على الكافرين ، إلا أن الرسل السابقين لم يُكلّفوا أن يقاتلوا من أجل الإيمان ، بل كان عليهم أن يعلنوا الحجة الإيمانية فقط ، وأن يبلغوا المنهج ، فإن عصى القوم ؛ فالسماء هى التى تتدخل لتأديب المخالفين .

والحق سبحانه يقول :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ (١) ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٢) (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ (٣) (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ (٤) عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (٥) (١٤) ﴾ [الفجر]

---

(١) إرم : اسم قبيلة منها «عاد» ، وقيل : هى مدينة كبيرة لهم ، وزعم الكندى فى كتابه «فضائل مصر» أنها مدينة الإسكندرية . وقوله تعالى : ﴿ .. ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) ﴾ [الفجر] يدل على أنها ذات حضارة ومبان عالية . [القاموس القويم ١/ ١٨].

(٢) جابه يجوبه جوباً : قطعه . وقوله : ﴿ .. جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) ﴾ [الفجر] أى : قطعوه ونحتوه وصنعوا منه بيوتهم وأصنامهم ، وحذفت ياء «الوادى» فى رسم المصحف . [القاموس القويم ١/ ١٣٥].

(٣) الأوتاد : جمع وتد . والوتد : قطعة مستطيلة من الخشب أو الحديد تثبت فى الأرض ثم يشد بها حبل يمسك الدابة أو سقف الخيمة ، وشبهت الجبال بالأوتاد ؛ لأنها تحفظ توازن الأرض وتثبتها . قال تعالى : ﴿ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧) ﴾ [النبأ] وقال أيضاً : ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ (١٠) ﴾ [الفجر] قيل : هم الجنود الذين يثبتون ملكه . وقيل : إنها أوتاد حقيقية كان يشد إليها من يريد تعذيبهم من الناس ، ولعل المراد بها الأهرام التى بناها فرعون ، تشبه الجبال . [القاموس القويم ٢/ ٣١٨].

(٤) السوط : الجلد الذى يضرب به ، وسُمِّى سوطاً لأنه يخلط الدم باللحم . وقوله تعالى : ﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) ﴾ [الفجر] وعبر عن الضرب بالسوط بالفعل «صب» ليفيد دوام الألم وشموله ، كأنه صب ألم الضرب فوقهم صباً فأغرقهم فيه كما يصب الماء على الجسم فيعمه . أو السوط : الخلط ، فالعذاب مختلط متنوع ، فصبَّ عليهم من العذاب أخلاطاً متنوعة . [القاموس القويم].

(٥) المرصد : اسم مكان الرصد ؛ كالمرصاد . قال تعالى : ﴿ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ .. (٥) ﴾ [التوبة] . وقال تعالى : ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا (٢١) ﴾ [النبأ] وقال تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (١٤) ﴾ [الفجر] والمراد : أن الحق سبحانه رقيب عليهم ويحصى جميع ذنوبهم - مهما صغرت - ليعاقبهم عليها . [القاموس القويم ١/ ٢٦٦] بتصرف .

ولكن الأمر اختلف بمجيء محمد ﷺ ، لأن دين محمد ﷺ هو الدين الذى تقوم عليه الساعة ، وقومه مأمونون على البلاغ عن الله تعالى خلافة للرسول ﷺ .

وعلى كل واحد من أمة محمد ﷺ يعلم حكماً من أحكام الله تعالى أن يبلغه؛ لأنه قائم مقام الرسول ﷺ .

والحق سبحانه يقول:

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا [1] لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا .. (١٤٣) ﴾ [البقرة]

إذن: فكل واحد من أمته ﷺ هو امتداد لرسالة الإسلام ، وبدلاً من أن السماء كانت تتدخل لتأديب الكافرين ، جعل الله سبحانه لأمة محمد ﷺ أن يقفوا بالقوة أمام الكافرين ، لا لفرض الإيمان ؛ لأن الإيمان لا يُفرض، ولا يُكره عليه ؛لأنك قد تُكره إنساناً فى الأمور الحسية ، لكنك لا تستطيع أن تملك قلبه ، والحق سبحانه يريد الإيمان الغيبى الذى يملك القلوب.

ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ [2] نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (٤) ﴾ [الشعراء]

إذن: فالحق سبحانه يريد قلوباً تخشع ، لا أعناقاً تخضع .

---

(١) الوسط: مصدر ، ويسمى به الشيء المتوسط ، ولأنه مصدر يوصف به المفرد وغيره ، بلفظه. قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا .. (١٤٣) ﴾ [البقرة] . أى: أمة فاضلة خيرة ، خير الأمم ، فالوسط خير الطرفين ، ويؤيده قوله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ .. (١١٠) ﴾ [آل عمران].

(٢) بخع نفسه بخعاً وبخوعاً: قتلها هماً وغيظاً وحزناً. قال تعالى: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (٦) ﴾ [الكهف] . [القاموس القويم].

وهكذا فُوِّضَتْ أمة محمد ﷺ تفويضين: فُوِّضَتْ فى نقل رسالة محمد ﷺ إلى الأجيال ، وكل جيل ينقلها إلى الجيل الذى يليه .

وها هو ﷺ يقول: «نَضَّرَ الله امرأ سمع مقالتى فوعاها وأداها إلى من لم يسمعها ، فرُبَّ مُبلغٍ أوعى من سامع»[(١)] .

وفُوِّضَتْ أمة محمد ﷺ فى أن تقف من الكافرين موقف تأديب ، لا لتفرض الدين ولكن لتحمى حق اختيار الدين ، فلم يحدث أن رُفع سيفٌ فى الإسلام ليفرض ديناً ؛ بل رفع السيف ليحمى حرية اختيار الإنسان للدين .

يقول سبحانه :

﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ .. (٢٩) ﴾ [الكهف]

فإذا آمن فعليه الالتزام بالإيمان ، فلا يكسر حكماً من أحكام الإيمان ، وهذا تصعيب للدخول فى الإسلام ، فمن أين يأتى ادعاء فرض الدين على المخالفين ؟!

إذن: فقد آمن المؤمن من أمة محمد ﷺ إيمانين: الإيمان الأول هو أن يؤمن بالإسلام ، والإيمان الثانى أن يبلغ الدعوة .

ولذلك قال رسول الله ﷺ : «علماء أمتى كأنبياء بنى إسرائيل»[(٢)] .

فهل المقصود بالعلماء هم من يعلمون العلم فقط ؟لا، بل يقصد كل من يعرف قضية من قضايا الإيمان معرفة سليمة وصحيحة ، وينساح

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (١/ ٤٣٧) والترمذى فى سننه (٢٦٥٧ ، ٢٦٥٨) وابن ماجه فى سننه (٢٣٢) والحميدى (١/ ٤٧) من حديث عبد الله بن مسعود .

(٢) أورده السيوطى فى الدرر المنتثرة (٢٩٣) وقال: لا أصل له . قال الشوكانى فى الفوائد المجموعة (ص ٢٨٦) : قال ابن حجر والزركشى: لا أصل له . وانظر كشف الخفاء للعجلونى (٢/ ٨٣) .
ويؤخذ من الحديث أن نوقر من العلماء الصدق والأمانة فى البلاغ والذكاء فى العرض .

بالدعوة فى الأرض ليعلِّم غير المؤمنين ويترك الناس أحراراً فى اختيار الدين.

وكذلك يقف المؤمنون برسالة رسول الله ﷺ لأية قوة تحارب حرية اختيار الدين.

وهكذا جاءت قصص القرآن لتثبيت فؤاده ﷺ.

ونحن نعلم أن الحق سبحانه قد بعث المصطفى ﷺ وهو فى مكة، فصرخ بالدعوة، لا فى آذان القبائل الواهية فى أطراف الجزيرة، ولكن فى آذان سادة الجزيرة، حتى لا يقال: إنه استضعف قوماً فناداهم إلى الإيمان به، ولم يجرؤ على السادة، وهم قريش، التى أخذت السيادة بحكم إقامتها فى مكان البيت العتيق، وكان كل العرب يحجون إلى البيت الحرام، فإذا ما تعرضت قبيلة لقريش بسوء، فقريش قادرة على أن تنال من أبناء تلك القبيلة حين يحجون إلى البيت الحرام.

وهكذا أخذت قريش هيبتها من وجودها حول البيت.

إذن: فالبيت هو الذى صنع السيادة لقريش، وهو الذى صنع السيادة للآلهة المدَّعاة من الأصنام حين يأتى كل قوم بإلههم من الحجر؛ ليضعوه فى البيت؛ ليكتسب الحجر قداسة من قداسة البيت.

إذن: فقد أخذت قريش السيادة من البيت الحرام، وجاء رسول الله ﷺ فأعلن الدعوة على أسماع السادة، وسَفَّه [1] أحلامهم، ولم يُبَالِ بجبروتهم وسيادتهم على الجزيرة.

---

(١) سفهت الرجل: أى: رميته بالسفه، ونسبته إلى الطيش والجهل، وسفه نفسه: حملها على الجهل والطيش فكأنه جعل نفسه سفيهًا. قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ .. (١٣٠)﴾ [البقرة]. وسفه أحلامهم: اتهمهم بالسفه والجهل. والأحلام -هنا- هى العقول [القاموس القويم ١/ ٣١٧].

لكن الحق سبحانه قد شاء ألا يكون انتصار الإسلام على يد السادة من قريش فى مكة ، بل جاء انطلاق الإسلام من المدينة ؛ لأن الله سبحانه أراد أن يُعلِّم الدنيا كلها أن العصبية لمحمد لم تخلق الإيمان بمحمد .

ولكن الله تعالى قد شاء أن يكون المستضعفون من أطراف الجزيرة هم الذين نصروا الدعوة ؛ فكأن الإيمان بمحمد ﷺ هو الذى خلق العصبية لمحمد للحق الممثَّل فى رسالة محمد ، ولم تخلق العصبية لمحمد إيماناً به وبرسالته .

وإذا كان الحقّ سبحانه قد نعتهم بالظالمين ، وبيَّن لهم أن المكان الذى قُلِبَ عاليه أسفله ، ليس ببعيد عنهم ، فهل لهم أن يتخذوا من ذلك عبرة ؟

والظلم - كما نعلم - هو مجاوزة الحق للغير ، أى : أن تأخذ حق الغير وتعطيه لغير ذى حق ، فإذا كان ظلماً فى الألوهية ، فهذا هو الشرك العظيم ، وإن كان ظلماً فى إعطاء حق من حقوق الدنيا للغير ، فهو ظلم للإنسانية ، والظلم درجات بحسب الجريمة .

وقد ظلمت قريش نفسها ظلماً عظيماً ؛ لأنها أشركت بالله ؛ وجعلت له شركاء فى الألوهية ؛ وهذا أقصى أنواع الظلم .

والله سبحانه يريد أن يذكِّر هؤلاء الظالمين بأن عذاب الله حين يجىء ، أو أمر الله حين يأتى ؛ لا يمكن أن يقوم أمامه قائم يمنعه ، فتنبهوا جيداً إلى أنكم عُرْضة أن يُنزل الله تعالى بكم العذاب كما أنزل بهذه القرى ؛ وهى غير بعيدة عنكم ، فالمسافة بين المدينة والشام قد تبدو مسافة طويلة إلا أن الله تعالى قد جعلهم يمرون عليها فى كل رحلة من رحلات الصيف إلى الشام [(١)] .

(١) وفى هذا يقول سبحانه : ﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٣) إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٣٤) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٣٥) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (١٣٦) وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٣٨) ﴾ [الصافات] .

إذن: فهى قرى تقع على طريق مسلوكة؛ ولذلك يقول الحق سبحانه عن موقعها:

﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ (٧٦)﴾ [الحجر]

أى: بطريق تمرون عليها، لا يجرفها سيل، ولا يغير معالمها ريح.

بل هى طريق ثابتة مقيمة تمرون عليها حينما تذهبون فى رحلة الصيف إلى الشام، فكان من الواجب أن تأخذوا فى كل مرور لقطة وعبرة؛ حتى لا تقعوا فى ظلم آخر.

وقد نبهكم الله سبحانه أيضاً بمروركم على ديار قوم صالح الذين خاطبهم الحق سبحانه بقوله:

﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ[1] آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ[2] لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ[3] جَبَّارِينَ (١٣٠)﴾ [الشعراء]

هكذا ترون ديار ثمود وديار عاد وديار لوط وهى خاوية، وكان من الواجب - معشر قريش - ألا تبالغوا فى الظلم، وأن تنتبهوا بالعبرة إلى مصير كل من يشرك بالله تعالى.

---

(١) الريع - بكسر الراء -: الجبل، أو ما يشبهه من المبانى المرتفعة أو المكان المرتفع. قال تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨)﴾ [الشعراء]. [القاموس القويم].

(٢) ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩)﴾ [الشعراء] أى: أبنية عالية وقصوراً متينة تحسنون صنعها راجين أن تخلدوا فيها، ولستم بخالدين. [القاموس القويم].

(٣) بطش به بطشاً: أخذه بعنف وشدة. قال تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (١٢)﴾ [البروج]. والجبر: القهر. وجبره: قهره وأكرهه على أمر. والجبار: صيغة مبالغة. والجبار من الناس: العاتى المتمرد المتسلط. وقال تعالى: ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ .. (٢٢)﴾ [المائدة]. وقال تعالى: ﴿.. وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (١٥)﴾ [إبراهيم]. [القاموس القويم ١/ ٧٢] بتصرف.

ويلفتهم الحق سبحانه إلى أنهم لم يكفروا بحق الألوهية فقط ، ولكنهم - أيضاً - كفروا بشكر النعمة ، وظلموا ؛ لأن الله سبحانه هو الذى أنعم عليهم برحلة الشتاء إلى اليمن ، وبرحلة الصيف إلى الشام ، والرحلتان للتجارة التى تأتى بالزيادة لقريش ؛ لأنهم يخرجون بالأموال ويعودون بالبضائع التى يبيعونها لأهل مكة ، ولزوار بيت الله الحرام.

وقد أخذت قريش مهابتها عند كل قوم يمرون عليهم أثناء الرحلتين ، من أنهم يعيشون حول البيت الحرام ، لذلك يمتن الله سبحانه على قريش فى قوله سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ (١) ۝ ﴾ [الفيل]

فالقوم الذين جاءوا ليهدموا البيت الحرام - وهو رمز السيادة - لو هدم وتحوَّل الحجيج إلى صنعاء ، لسقطت مهابة قريش ، ولكن الله تعالى حمى البيت وأرسل عليهم طيراً أبابيل ، وجعل الذين قصدوه بسوء كعصف مأكول.

لماذا صنع الله تعالى ذلك ؟

تأتى الإجابة فى السورة التالية لسورة الفيل حيث يقول الحق سبحانه فى سورة قريش :

---

(١) كيدهم : سعيهم لتخريب الكعبة. تضليل : تضييع وإبطال وخسار. طيراً أبابيل : جماعات متفرقة متتابعة. سجيل : طين متحجر محرق (آجر). كعصف مأكول : كتبن أكلته الدواب فراثته. [كلمات القرآن - للشيخ حسنين مخلوف].

﴿ لإيلاف [1] قُرَيْشٍ (١) إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (٤) ﴾ [قريش]

إذن: كان من الواجب حين يمرون على هذه الديار أن يأخذوا منها عبرة ، وأنهم - وإن كانوا يمرون على هذه الديار بقصد التجارة وهى سر معاشهم - إذا لم يأخذوا من هؤلاء العبرة فهم يقترفون ظلماً جديداً آخر .

لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ .. وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (٨٣) ﴾ [هود]

أو : أن الله سبحانه وتعالى أراد أن ينبه قريشاً إلى أن الهلاك الذى نزل بهؤلاء القوم المشركين ، ليس ببعيد أن يصيب قريشاً ، وأن يرسل الله سبحانه على كل واحد من الكافرين به حجراً مسوَّماً يصيبه فى مكانه الذى يكون فيه .

والسطحيُّون - فى اللغة - يخطئون فيأخذون على القرآن مآخذ ، لا تلتفت إليها الملكة الصحيحة فى اللغة ، ويقولون : كيف يقول الله :

﴿ .. وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (٨٣) ﴾ [هود]

وكلمة «ما هى» مؤنثة ، وتقتضى أن يقول : «بعيدة» بدلاً من كلمة «بعيد» ، أى : أن يكون القول : «وما هى من الظالمين ببعيدة» ونسوا أن المتكلم هو الله تعالى ، وأنهم لم يدرسوا اللغة دراسة صحيحة ؛ لأن «فعيل» إن جاءت بمعنى «مفعول» ، فهنا يستوى المذكر والمؤنث.

(١) لإيلاف قريش : اعجبوا لإيلافهم الرحلتين وتركهم عبادة رب البيت [كلمات القرآن].

ومثال ذلك من القرآن الكريم أيضاً هو قول الحق سبحانه :

﴿ .. وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ[(1)] (٤) ﴾ [التحريم]

وقول الحق سبحانه :

﴿ .. إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ[(2)] مِّنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) ﴾ [الأعراف]

إذن : فعدم درايتهم باللغة هو الذى جعلهم يخطئون مثل هذا الخطأ .

ويأتي الحق سبحانه بعد ذلك بقصة أخرى من القصص التى جاء بها الله فى هذه السورة لموكب الرسل ، فيأتى بقصة شعيب عليه السلام ، ويقول سبحانه :

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ[(3)] أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ[(4)] وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ[(5)] (٨٤) ﴾

---

(١) الظهير : المعين المساعد كأنه يسند ظهر من يعاونه . قال تعالى : ﴿ .. وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ (٢٢) ﴾ [سبأ] وقال تعالى : ﴿ .. وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨) ﴾ [الإسراء] أى : معيناً مساعداً . وقال تعالى : ﴿ .. وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا (٥٥) ﴾ [الفرقان] أى : معاوناً أعداء الله ضد الله وضد كتبه وضد رسله - وتعالى الله عما يفعلون . [القاموس القويم ١/ ٤١٨] .

(٢) قرب الشيء من الشيء ، يقرب قرباً : دنا منه فهو قريب قرب مسافة ، فيستوى فيه المذكر والمؤنث ، قال تعالى : ﴿ .. إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) ﴾ [الأعراف] أى : مكانها قريب منهم ، وأما قرابة النسب فتطابق الموصوف فتقول : هو قريب لى وهى قريبة لى فى النسب والرحم . [القاموس القويم٢/ ١٠٨] .

(٣) قال القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٤٠٤) : «فى تسميتهم بذلك قولان : أحدهما : أنهم بنو مدين بن إبراهيم ، فقيل : مدين ، والمراد بنو مدين . كما يقال مضر والمراد بنو مضر .

الثانى : أنه اسم مدينتهم ، فنسبوا إليها . قال النحاس : لا ينصرف مدين لأنه اسم مدينة» .

(٤) كال القمح يكيله كيلاً : قدره بمكيال ، وهو وعاء له سعة معلومة اتفق الناس على التقدير به . قال تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ .. (٣٥) ﴾ [الإسراء] والكيل : مصدر «كال» ، ويطلق على المكيال . والمكيال يستخدم لكيل الحبوب . وإذا نقص المكيال نقص ما يكال به ، فالله سبحانه وتعالى ينهى عن أن ينقص المؤمن شيئاً مما يبيعه للناس ، أو ما يكيله لهم . [القاموس القويم٢/ ١٨٢] بتصرف . وجمع مكيال : مكاييل . وجمع كيل : أكيال . والكيلة : وعاء يكال به الحبوب ومقداره الآن ثمانية أقداح ، والجمع : كيلات . [المعجم الوسيط] .

(٥) يوم محيط : مهلك . [كلمات القرآن] .

و«مدين» هو اسم ابن إبراهيم عليه السلام ، ولم يكن هذا الابن موجوداً وقت بعثة شعيب ، لكن القبيلة التى تناسلت منه سُمِّيت باسمه ، وكذلك القرية التى أقامت فيها القبيلة سميت باسمه ، فإن قلت إن شعيباً أرسل لقبيلة مدين ، فهذا قول سليم ، وإن قلت إنه أرسل لقرية مدين ، فهذا قول سليم أيضاً ؛ لأن القرية لا بد لها من سكان.

والحق سبحانه يقول على لسان إخوة يوسف عليه السلام :

﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا .. (٨٢) ﴾ [يوسف]

والمقصود « أسأل أهل القرية»[1] .

إذن : فمرة يطلق الاسم على المكان ، ومرة يطلق المكان ويراد به المكين.

وقد بدأ شعيب رسالته مع قومه من حيث بدأ كل الرسل بالدعوة إلى قمة التدين ، وهو أن يعبدوا الله وحده لا شريك له ولا إله غيره ، وهذا هو القدر المشترك فى كل الرسالات.

والحق سبحانه يقول :

﴿ شَرَعَ[2] لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي[3] إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ (١٣) ﴾ [الشورى]

إذن : فقمة الدين هى قضية العقيدة الإيمانية ، وهى عبادة الله تعالى وحده ولا إله غيره ، لأن الحق سبحانه حين يوجه الأوامر التكليفية «افعل»

---

(١) الآية فيها مجاز بالحذف ، وهو أحد فنون البلاغة .

(٢) شرع الشيء : بينه وأوضحه . والشرعة والشريعة : ما شرعه الله وبيَّنه من العقائد والأحكام . [القاموس القويم] بتصرف .

(٣) الاجتباء : الاختيار والاستخلاص والاصطفاء . [القاموس القويم ١/ ١١٧] .

و «لا تفعل» فالله سبحانه لا يوجهها إلا لمن آمن به إلهاً واحداً ، أما الذى لا يؤمن به ، فالله سبحانه لا يوجه إليه أى حكم.

ولذلك تجد حيثية كل حكم تكليفى فى القرآن مُصَدَّراً بقوله تعالى:

﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا .. (١٧٨) ﴾ [البقرة]

سواء أكان الأمر صياماً [١] ، أم قصاصاً [٢] ، ففى كل تكليف يُصدَّر بهذا القول ، لا بد أن يأتى المعنى: يا من آمنت بى إلهاً قادراً حكيماً ، اسمع منى التكليف.

ولذلك أقول دائماً:

إن علة كل تكليف هى الإيمان بالمكلِّف ، ولا داعى للبحث عن علة أخرى.

فمثلاً حين يُقَال: إن علة الوضوء النظافة ، نقول: وإن لم يوجد ماء ، فنحن نلمس التراب أو الحجر ثم نمسح وجوهنا فى التيمم [٣].

إذن: فالمقصد هو أن نتهيأ للصلاة بأى شكل يحقق مقصود العبادة وهو الطاعة للخالق سبحانه وتعالى.

وإياك أن تؤخر تنفيذ الحكم إلى أن تبرره ؛ لأن مبرره هو صدوره عن الله سبحانه وتعالى.

---

(١) يقول رب العزة سبحانه: ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣) ﴾ [البقرة].

(٢) يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٨) وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧٩) ﴾ [البقرة].

(٣) التيمم لغة: القصد. وشرعاً: هو طهارة ترابية تقوم مقام المائية عند فقدان الماء حقيقة أو حكماً ، ويصح إلى تسعة أشخاص: فاقد الماء الكافى ، وفاقد القدرة على استعماله ، والخائف حدوث مرض أو زيادته ، وتأخر برء ، وعطش محترم ، والخائف مع تلف حال ذى بال. الشرح الصغير للدرديرى جـ ١
يقول سبحانه: ﴿ .. وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا (٤٣) ﴾ [النساء].

وكذلك كل شيء يقوله رسول الله ﷺ فنحن نتبعه ، ولا نبحث عن علة له ، وإلا لو كنا نؤجل الأحكام إلى أن تثبت تبريراتها العلمية مثل فساد لحم الخنزير بما يحمله من أمراض ، ومثل قدرة الخمر على إهلاك المخ وتدمير خلاياه ، فضلاً عن تدمير خلايا الكبد ، فنحن لو كنا قد أجلنا تلك الأحكام ، فماذا كان الموقف ؟

لقد طبَّق المسلمون هذه الأحكام فور نزولها ؛ لإيمانهم بالمنهج وحبهم فى القرب من الله ، ثم أثبتت الأيام صدق الله تعالى فى تكليفه .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ .. (٨٤) ﴾ [هود]

وعرفنا أن العبادة ليست محصورة فى الصلاة أو الصوم أو الزكاة أو الحج ؛ لأن هذه هى الأركان الأساسية [1] التى يقوم عليها الإسلام ؛ ولكن الإسلام أيضاً هو عمارة الأرض بتنفيذ كل التكاليف [2] ، وكل ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

فإقبال الإنسان على مهنة ما يحتاجها المجتمع هو عبادة ، وإذا خلتْ صنعة من صانع فعلى ولى الأمر أن يكلف ويرغم بعض الناس على تعلمها ؛ وأيضاً إتقان الصنعة عبادة .

---

(١) عن ابن عمر رضى الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال : «بنى الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصيام رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً » متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٨) وكذا مسلم (١٦) .

(٢) التكاليف تنحصر فى الأمر والنهى . والأمر نأخذ منه الفرض والواجب والسنة والمستحب ، سواء كان تعبدياً أو اجتماعياً ، والنهى نأخذ منه الحرام والمكروه ، وعلى اتباع الأمر واجتناب النهى يكون المجتمع الصالح بدليل قوله تعالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا .. (٧) ﴾ [الحشر] وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا .. (٣٠) ﴾ [فصلت] .

وقول الحق سبحانه على لسان شعيب ﷺ:

﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ .. (٨٤)﴾ [هود]

أي: إياك أن تأخذ حكماً تكليفياً من أحد آخر غير الله سبحانه وتعالى، لأنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له.

وإياك أن تستدرك[1] من البشر حكماً على الله سبحانه وتعالى، وتظلم نفسك وتقول: «لقد فات الله أن يقول لنا هذا الحكم، ولنأتي لأنفسنا بحكم جديد»[2].

إياك أن تستدرك حكماً على الله. افهم الحكم أولاً، فإن جاء حكماً محكماً فخذه، وإنْ كان غير محكم بأن جاء مجملاً، أو غير مبيَّن، فانظر باجتهادك إلى أية جهة تصل.

ولذلك نجد رسول الله ﷺ يسأل من أرسله مبعوثاً إلى اليمن فقال: «كيف تصنع إن عرض لك قضاء؟ قال: أقضي بما في كتاب الله. قال: فإن لم يكن في كتاب الله؟ قال: فبسنة رسول الله ﷺ. قال: فإن لم يكن في سنة رسول الله ﷺ؟ قال: أجتهد رأيي ولا آلو، قال: فضرب رسول الله ﷺ صدري ثم قال: الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله ﷺ لما يرضي رسول الله ﷺ»[3].

وبعد أن دعا شعيب - ﷺ -آل مدين لعبادة الله سبحانه وحده، وهذا هو الأمر المشترك بين جميع الرسل-عليهم السلام- تأتي الأحكام الأخرى،

---

(١) استدرك ما فات: تداركه. واستدرك الشيء بالشيء: تداركه به. واستدرك عليه القول: أصلح خطأه، أو أكمل نقصه، أو أزال عنه لبساً. [المعجم الوسيط].

(٢) يقول الحق: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا .. (٣)﴾ [المائدة].

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٥/ ٢٣٠، ٢٣٦، ٢٤٢) وأبو داود في سننه (٣٥٩٢) كتاب الأقضية من حديث معاذ بن جبل.

فمن يعمل فاحشة له علاجه ، ومن ينقص فى الكيل والميزان ، فالرسول يعالج هذا الأمر.

لأن العالم القديم كان عالم انعزال، لا التحام فيه أو مواصلة ؛ فقد يوجد عيب وآفة فى مكان ، ولا يوجد هذا العيب أو تلك الآفة فى مكان آخر.

وكل رسول يأتى ليعالج عيباً محدداً فى المكان الذى أرسله الله إليه ، ولكن رسول الله محمداً ﷺ جاء - وهو الرحمة المهداة للجميع وخاتم الأنبياء والمرسلين - جاء ﷺ والدنيا على ميعاد بالالتقاء الإيمانى ، فلما تقاربت البلاد عن طريق سرعة الاتصالات ، وما يحدث فى عصرنا الآن بقارة أمريكا نجده عندنا فى نفس اليوم أو غداً ، فالعالم الآن عالم التقاء ، وتعددت الداءات فيه وتوحدت بسبب سرعة الالتقاء عن طريق عدم التمييز بين الخبيث والطيب.

ولذلك شاء الحق سبحانه أن يكون محمد ﷺ هو خاتم الرسل.

وكانت خيبة آل مدين هى عدم عبادة الله وحده ، وكذلك كانت فيهم خسيسة التطفيف [1] فى الكيل والميزان ، لذلك يقول الحق سبحانه على لسان شعيب عليه السلام:

﴿وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ ..﴿٨٤﴾﴾ [هود]

وحين قرأ العلماء هذا القول الكريم لم يلتفتوا إلى أن المراد ليس نقص المكيل والموزون [2] ، لأنه لو شاء لقال: «ولا تنقصوا المكيل أو الموزون» هذا

---

(١) طفف الكيل : طول أعلاه وجعل له طفاً فوقه ، وذلك حين يضع يده أو يديه بجانبه ، فيمنع الحَبَّ الزائد من التساقط ثم يسرع بوضعه فى إنائه ليأخذ أكثر من حقه ويظلم من يبيع له السلعة . قال تعالى : ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾﴾ [المطففين] فهم مطففون فى الحالتين لأنهم يأخذون أكثر من حقهم ويسلمون غيرهم حقه ناقصاً . [القاموس القويم ١/ ٤٠٣].

(٢) المكيل : اسم مفعول من (كال) ، وهو كل شيء يكال بالمكيال سواء أكان قمحاً أو غيره . واسم الفاعل : «كائل» . والموزون : اسم مفعول من (وزن) وهو كل شيء يوزن بالميزان . واسم الفاعل : «وازن».

إذا نظرنا إلى الأمر من وجهة ما يريد البائع ، ولكن القول هنا يقصد أن يأخذ كل ذى حق حقه ، أن يأخذ المشترى حقه من السلعة ، وأن يأخذ البائع حقه فى الربح .

إذن : فهذا القول الكريم يشمل البائع والمشترى معاً [1] .

والكيل - كما نعرف - هو تعديل شىء بشىء ، فإن كان فى الخفة والثقل ؛ فالأمر يحتاج إلى ميزان ، وإن كان تعديل شىء بشىء فى الكم ، فهذا يحتاج إلى الكيل ، وهذا هو الأمر المشهور فى الكيل والميزان ، وأى تعديل شىء بشىء يحتاج إلى ما يناسبه ؛ فالقماش مثلاً - يتم تعديله بالمتر ، والأرض يتم تعديلها بالمساحة ؛ أى : قياس الطول والعرض ، وبعض الأشياء تُباع بالحجم ، وهذا يعنى قياس الطول والعرض والارتفاع واستخراج الناتج بعملية ضرب كل منهم فى الآخر .

إذن : فالأمر المهم هو أن يأخذ كل إنسان حقه ، حتى وإن كان تأجير قوة عامل لينجز عملاً ، فأنت تعدل زمن وقوة العمل بالأجر الملائم ، والأمر المشهور هو الكيل والميزان ، لكن بقية التقييمات موجودة ؛ ليأخذ كل ذى حق حقه .

لأن الإنسان لو أخذ غير حقه لاستمرأ أن يأخذ حقوق الناس ، ولو أكل بعض الناس حقوق البعض الآخر ؛ لَزهدَ من أكلتْ حقوقهم فى العمل .

وأنت حين تعطى للإنسان أقل مما يستحق ، أو تأخذ من جهده فوق ما تدفع له من أجر ، تجده يبطىء فى العمل ، ولا ينجز المطلوب منه على تمام الدقة ، ومن هنا يحدث الخلل .

ولذلك أقول : إن إعطاء كل ذى حق حقه يزيد من جودة الأداء فى العمل .

---

(١) كما يفهم من مراد الشيخ أن إعطاء الحقوق هو التوازن لميزان الحياة .

وعلينا أن نترك صاحب الطموح ليعمل ؛ بدلاً من أن يخزن ماله أو يكنزه ؛ لأن صاحب الطموح حين يقيم مشروعاً أو بناءً ؛ فهو يفيد الفقراء وينفعهم - حتى وإن كان لا يفكر فى ذلك - فالذى يبنى عمارة سكنية ينفع الصناع والعمال ومنتجى المواد اللازمة للبناء - دون أن يقصد - وسينتفع العامل الفقير - دون أن يقصد صاحب العمل - وربما انتفع كل الفقراء مما يصنعه صاحب العمل ، قبله فيما يفعل.

إذن : فمن المهم أن يأخذ كل إنسان حقه قبل أن يجف عرقه ؛ مصداقاً لقول رسول الله ﷺ : «أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه»[(١)] .

وهكذا نعلم أن الدين فى ظاهر الأمر يحض على الإيثار ، وفى واقع الأمر ، هو يحرص على تأكيد ثواب الإنسان عند ربه ؛ لأن الذى يؤثر[(٢)] غيره على نفسه - ولو كان به خصاصة[(٣)] - لو كان معه مال قليل وأعطاه لآخر عنده ضائقة ، وليس عند هذا الآخر مال ، هنا يكون صاحب المال القليل قد آثر الآخر على نفسه فى ظاهر الأمر ، ولكنه سيأخذ أضعاف هذا المال ثواباً من عند الله تعالى[(٤)] .

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى سننه (٢٤٤٣) من حديث ابن عمر ، قال البوصيرى فى زوائده : إسناده ضعيف ، فيه ضعيفان . وأخرجه بهذا اللفظ أيضاً الطبرانى فى معجمه الصغير (١/ ٢٠) من حديث جابر ، وأبو نعيم فى الحلية (٧/ ١٤٢) من حديث أبى هريرة . فهو بمجموع هذه الطرق والروايات يرقى إلى مرتبة الحسن ، وله أصل فى صحيح البخارى عن أبى هريرة - كتاب البيوع .

(٢) أثره : اختاره وفضَّله . قال تعالى : ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا .. ﴿٩١﴾ ﴾ [يوسف] وقال تعالى : ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ ﴾ [الأعلى] أى : تفضلونها على الآخرة . وقال تعالى : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ .. ﴿٩﴾ ﴾ [الحشر] أى : يفضلون غيرهم على أنفسهم كرماً ومروءة وتقوى . [القاموس القويم ١/ ٧] .

(٣) الخصاصة : الفقر وسوء الحال والحاجة . وأصل ذلك من الفرجة أو الخلة لأن الشيء إذا انفرج وَهَى واختل [لسان العرب : مادة خصص] .

(٤) يقول رب العزة سبحانه : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ﴾ [البقرة] .

وهكذا يعلمنا الدين النفعية الراقية ، وهى النفعية التى يعاملنا بها الله سبحانه ؛ وحين نترك قانون النفعية ليسيطر على حركة الناس ، فنحن نوفر سيولة الانتفاع فى المجتمع .

وهنا فى الآية الكريمة التى نحن بصدد خواطرنا عنها عرفنا أن شعيباً قال لأهل مدين :

﴿ وَلا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ .. (٨٤) ﴾ [هود]

أى : أنكم يا أهل مدين غير مضطرين لذلك ؛ لأن من يبيع منكم عنده سلع ، ومن يشترى إنما يملك نقوداً ، فاكتفوا بالخير الذى عندكم ، وليأخذ كل ذى حق حقه ، وهذه قضية يغفل عنها كثير من الناس ؛ فالذى يبيع قد يبيع صنفاً واحداً ، فإن غش فى الكيل أو الميزان ، فسوف يغشه ويخدعه غيره فى الأصناف الأخرى التى تلزمه لحياته .

وإن اشتغل واحد فى إنقاص الكيل والميزان ، فالآخرون سيفعلون مثل ذلك فى كل ما يخص حياته ؛ لأن المخادع الواحد ، سيلقى مخادعين كثيرين ، وهنا يقول شعيب ﷺ : ما الذى يضطركم إلى ذلك وأنتم بخير؟

ثم يقول محذراً :

﴿ .. وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ[1] يَوْمٍ مُّحِيطٍ (٨٤) ﴾ [هود]

لأنك حين تنقص شيئاً وأنت تبيع أو تزيد شيئاً حين تشترى ، فأنت لا تخدع من تتعامل معه ، وإنما تخدع نفسك .

وكلنا يعلم أن الغفلة قد تطرأ على البائع ، وقد تطرأ على المشترى ، وقد يحاول بائع أن يستغل غفلة المشترى فيزيد من ثقل الميزان بإصبعه ، وقد

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٤٠٥) : «اختُلف فى ذلك العذاب فقيل : هو عذاب النار فى الآخرة . وقيل : عذاب الاستئصال فى الدنيا . وقيل : غلاء السعر» .

يحاول المشترى أن يستغل غفلة البائع بأن يرفع كفة الميزان بإصبعه من غير أن يراه البائع ، فيأخذ غير حقه ، وهذا نوع من خداع النفس ؛ لأن الحق سبحانه إنما يأمر بالاستقامة فى البيع والشراء ؛ لأن الانتفاع بأى شىء مهما كَثُر ، فهو موقوت بعمر الإنسان في الدنيا ، وعمر الإنسان موقوت ، ولكن الذى يغش ويخدع إنما يُعرِّض نفسه لعذاب الله سبحانه فى الآخرة [1] ، وهو عذاب بلا أمد ولا نهاية .

وهكذا يسلِّم الإنسان نفسه لفائدة قليلة فى الدنيا الزائلة ، ثم يلقى عذاباً لا ينتهى فى آخرة غير زائلة .

والعذاب فى الآخرة عذاب محيط ، بمعنى أن المعذَّب لا يستطيع أن يفلت منه ، فأنت فى الدنيا بإمكانك أن تحتال فى النجاة من العذاب ، وقد تلجأ إلى من هو أقوى منك ليحميك ، ولكنك فى الآخرة تواجه يوماً لا بيع فيه ولا خُلَّة [2] ولا شفاعة ، إن كنت من أهل النار .

يقول الحق سبحانه بعد ذلك ما جاء على لسان شعيب مواصلاً الحديث إلى أهل مدين :

﴿ وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ [3] ﴿٨٥﴾ ﴾

---

(١) وهناك عذاب آخر فى الدنيا جاءت به أحاديث رسول الله ﷺ ، فقد أورد القرطبى فى تفسيره (٣٤٠٥/٤) عن رسول الله ﷺ : «ما أظهر قوم البخس فى المكيال والميزان إلا ابتلاهم الله بالقحط والغلاء» .

(٢) الخلة : الصداقة الخالصة المتينة التي تخللت القلب ، وجمعها : خلال . [القاموس القويم] . وقال تعالى : ﴿ .. مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾ ﴾ [إبراهيم] .

(٣) بالقسط : بالعدل ، بلا زيادة ولا نقصان .
لا تبخسوا : لا تنقصوا .
لا تعثوا : لا تفسدوا أشد الإفساد . [كلمات القرآن] . والعثو فى الأرض هو الإتلاف والإضلال .

وفى الآية الكريمة السابقة قال الحق سبحانه :

﴿ وَلا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ .. (٨٤) ﴾ [هود]

وهكذا نعلم أن عدم الإنقاص فى الكيل والميزان مطلوب ، وكذلك توفية المكيال والميزان مطلوبة ؛ لأنهما أمر واحد ، والحق سبحانه لا يتكلم عن المكيل ولا عن الموزون إلا بإطلاقهما ، وهو كل عمل فيه واسطة بين البائع والمشترى .

وفى موضع آخر من القرآن الكريم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) ﴾ (١) [المطففين]

ذلك لأن البائع قد يقول لك : أنت مأمون فزنْ أنت لنفسك أو كلْ أنت لنفسك ، وقد تخدع البائع فتأخذ أكثر من حقك ؛ وقد يفعل البائعَ عكس ذلك ، وفى مثل هذا بؤس للاثنين .

وهنا يقول شعيب ﷺ :

﴿ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ .. (٨٥) ﴾ [هود]

والحق سبحانه هنا تكلم عن النقص وعن الإيفاء .

ثم يقول سبحانه :

﴿ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ .. (٨٥) ﴾ [هود]

---

(١) ويل : عذاب أو هلاك أو واد فى جهنم . للمطففين : المنقصين فى الكيل أو الوزن .
اكتالوا : اشتروا بالكيل ، ومثله الوزن . يستوفون : يأخذون حقهم كاملاً .
كالوهم : أعطوا غيرهم الوزن . وزنوهم : أعطوا غيرهم الوزن .
يخسرون : ينقصون الكيل والوزن . [كلمات القرآن] بتصرف .

وهذا كلام عام لا ينحصر فى مكيل أو موزون ، فقد يأتى مشتر ليبخس من قيمة سلعة ما ، أو أن يأخذ رشوة لقضاء مصلحة ، أو يخطفَ ما ليس حقّاً له ، أو يغتصب ، أو يختلس ، وكلها أمور تعنى : أخذ غير حق بوسائل متعددة.

ونحن نعلم أن الخطف إنما يعنى أن يمد إنسان يده إلى ما يملكه آخر ويأخذه ويجرى ، أما الغصب ، فهو أن يمد إنسان يده ليأخذ شيئاً ، فيقاومه صاحب الشىء ، لكن المغتصب يأخذ الشىء عنوة ، أما المختلس فهو المأمون على شىء فاختلسه ، والمرتشى هو من أخذ مالاً أو شيئاً مقابل خدمة هى حق لمن يطلبها.

إذن : فقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ .. (٨٥) ﴾ [هود]

تضم أشياء متعددة.

والبخس هو أن تضر غيرك ضرراً ، بإنقاص حقه ، سواء أكان له حجم ، أو ميزان ، أو كَمٌّ ، أو كَيْفٌ.

وكلمة «أشياء» مفردها : «شىء» ، ويقولون عن الشىء : «جنس الأجناس» فالثمرة يقال لها : «شىء» ، وكل الثمر يقال له : «شىء».

والحق سبحانه وتعالى يوصينا ألا يغرنا أى شىء مهما كان قليلاً.

ونحن نلحظ هنا أن كلمة «الناس» جمع ، وكلمة «أشياءهم» جمع أيضاً ، وإذا قوبل جمع بجمع اقتضت القسمة آحاداً. أى : لا تبخس الفرد شيئاً ، وإنْ قَلَّ.

ونجد واحداً من العارفين بالله قد استأجر مطيَّة [١] من خان [٢] ليذهب بها من مكان إلى مكان آخر ، فلما ركب المطية وقع منه السوط الذى يحركها به ، فأوقف الدابة مكانها وعاد ماشياً على قدميه إلى موقع سقوط السوط ليأخذه ، ثم رجع ماشياً إلى مكان الدابة ليركبها . فقال له واحد من الناس : لماذا لم ترجع بالدابة إلى موقع السوط لتأخذه وتعود ؛ فأجاب العارف بالله : لقد استأجرتها لأصلَ بها إلى مكان فى اتجاه معين ، ولم يتضمن اتفاقى مع صاحبها أن أبحَث بها عن السوط .

ونجد عارفاً آخر جلس يكتب كتاباً ، وكان الناس فى ذلك الزمان يجففون الحبر الزائد بوضع قليل من الرمال فوق الصفحات المكتوبة ، ولم يجد العارف بالله ما يجفف به المكتوب ، فأخذ حفنة من تراب بجانب جدار . ثم ذهب إلى صاحب الجدار وقال له : أنا أخذت تراباً من جانب جدارك فقوِّمه [٣] فقال صاحب الجدار : والله لورَعِك [٤] لا أقوِّم ، أى : أنه قد تسامح فى هذا الأمر .

ويُنهى الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

﴿ .. وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [هود]

(١) المطية من الدواب : ما يُمتطَى أى : يُركَب [تذكر وتؤنث] فالبعير مطية ، والناقة مطية . والجمع : مطايا ، ومطىٌّ . [المعجم الوسيط] .

(٢) الخان : المتجر ، أو الحانوت ، وقد تطلق على الفندق ، أو الأمير ، أو غيره . وهى كلمة معربة . [المعجم الوسيط] .

(٣) التقويم هنا معناه : تقدير ثمنه ليشتريه منه . والقيمة : ثمن الشيء بالتقويم . ويقال : كم قامت ناقتك؟ أى : كم بلغت؟ [انظر لسان العرب - مادة قوم] .

(٤) الورع : اتقاء الشبهات ، ولا يتم الورع إلا بحفظ اللسان واجتناب سوء الظن واجتناب السخرية وغض البصر عن المحارم وصدق اللسان والاعتراف بمن الله وإنفاق المال فى الحق ، وترك الكثير والمحافظة على التكاليف والاستقامة . الغنية للجيلانى صـ ١٣٤ بتصرف .

وكلمة عثا [1] ، يَعْثى ، ويعثو ، وعثى . يعثى ؛ كلها تعنى : زاول فساداً ، أى : أن يعمد الإنسان إلى الصالح فى ذاته فيفسده ، مثل طَمْر بئر ماء ، أو حفر طريق يسير فيه الناس ، وهو كل أمر يخرج الصالح - فى ذاته - عن صلاحه .

والمجتمع كله - بكل فرد فيه - مأمور بعدم مزاولة الفساد ، ولو طبَّق كل واحد ذلك لصار المجتمع كله صالحاً ، ولكن الآفة أن بعض الناس يحب أن يكون غيرهُ غير مفسد ، ولكنه هو نفسه يفسد ، ولا يريد من أحد أن يعترض عليه .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ بَقِيَّتُ [2] ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ [3] ﴿٨٦﴾ ﴾

أى : ما يبقى لكم من الأمر الحلال خير لكم ؛ لأن من يأخذ غير حقه يخطىء ؛ لأنه يزيل البركة عن الحلال بالحرام ؛ فمن يأخذ غير حقه يسلط الله عليه أبواباً تنهب منه الزائد عن حقه .

وأنت تسمع من يقول : «فلان هذا إنما يحيا فى بركة» ، أى : أن دخله قليل ، ولكن حالته طيبة ، ويربى أولاده بيسر ، على عكس إنسان آخر قد يكون غنيّاً من غير حلال ، لكنه يحيا فى ضنك [4] العيش .

---

(١) عثا يعثو ويعثى ، وعثى يعثى ، عثواً وعثياً : أفسد أشد الإفساد . قال تعالى : ﴿ .. وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [هود] ومفسدين حال مؤكدة لمعنى تعثوا . [القاموس القويم ٢/ ٧] .

(٢) البقية : ما بقى من الشىء أو ما استحق أن يبقى لما فيه من النفع والخير للناس . وتطلق البقية على الشىء الباقى . قال تعالى : ﴿ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ .. ﴿٨٦﴾ ﴾ [هود] أى : ما أبقاه الله وادخره لكم من الثواب خير . [القاموس القويم ١/ ٧٩] .

(٣) حفيظ : رقيب عليكم ويجازيكم بأعمالكم . [كلمات القرآن] بتصرف .

(٤) ضنك الشىء : ضاق . والضنك : الضيق من كل شىء وهو مصدر يوصف به ؛ فيستوى فيه المذكر والمؤنث والمفرد وغيره . قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا .. ﴿١٢٤﴾ ﴾ [طه] أى : ضيقة غير متسعة . [القاموس القويم ١/ ٣٩٥] .

وقد تجد هذا الإنسان قد انفتحت عليه مصارف الدنيا فلا يكفى ماله لصد همومه ، لأن الله سبحانه قد جرّأ عليه مصارف سوء متعددة.

وقد يستطيع الإنسان أن يخدع غيره من الناس ، ولكنه لن يستطيع أن يخدع ربه أبداً [1].

وقول الحق سبحانه:

﴿ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ .. ﴿٨٦﴾ ﴾ [هود]

أى: أن الله تعالى يُذهب - عمن يراعى حقوق غيره - مصارف السوء.

وسبق أن قلنا قديماً: فلننظر إلى رزق السلب لا إلى رزق الإيجاب ؛ لأن الناس فى غالبيتها تنظر إلى رزق الإيجاب ، بمعنى البحث عن المال الكثير ، وينسون أن الحق سبحانه وتعالى قد يسلط مصارف السوء على صاحب المال الكثير الذى جمعه من غير حق ، بينما يسلب عن الذى يرعى حقوق الناس تلك المصارف من السوء [2].

ومن يُربُّون أولادهم من سُحْت [3] أو حرام ، لا يبارك الله فيهم ؛ لأن هناك فى تكوينهم شيئاً حراماً. فنجد - على سبيل المثال - ابن المرتشى يأخذ دروساً خصوصية ويرسب ، بينما ابن المنضبط والملتزم بتحصيل

---

(١) يقول رب العزة سبحانه: ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [البقرة] ، ويقول سبحانه: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ .. ﴿١٤٢﴾ ﴾ [النساء]، ويقول عز وجل: ﴿ وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ .. ﴿٦٢﴾ ﴾ [الأنفال].

(٢) يقول الحق سبحانه: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [طه].

(٣) السحت: المال الذى يكتسب من وجه حرام كالرشوة وما أخذ بالغش والخداع. قال تعالى: ﴿ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ .. ﴿٤٢﴾ ﴾ [المائدة] ، وقال تعالى: ﴿ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ .. ﴿٦٢﴾ ﴾ [المائدة]. [القاموس القويم] بتصرف.

الكسب الحلال مقبل على العلم وناجح. أو قد يرزق الله تعالى صاحب المال الحرام زوجة لا يرضيها أى شىء ، بل تطمع فى المزيد دائماً ، بينما يعطى الله سبحانه من يرعى حقوق الناس زوجة تقدر كل ما يفعله.

يقول الحق سبحانه:

﴿ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ..(٨٦) ﴾ [هود]

أى: إن كنتم مؤمنين بأن الله تعالى رقيب ، وأنه سبحانه قيُّوم ؛ فلا تأخذ حقاً غير حقك ؛ لأنك لن تستغل إلا نفسك ؛ لأن الله سبحانه وتعالى رقيب عليك.

ويُنهى الحق سبحانه الآية بقوله:

﴿ .. وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ (٨٦) ﴾ [هود]

أى: أن شعيباً ﷺ قد أوضح لأهل مدين: أنا لن أقف على رأس كل مفسد لأمنعه من الإفساد ؛ لأن كل إنسان عليه أن يكون رقيباً على نفسه ما دام قد آمن بالله سبحانه ، وما دام قد عرف أن الحق سبحانه قد قال:

﴿ بَقِيَّتُ[1] اللَّهِ .. (٨٦) ﴾ [هود]

أى: أن ما يبقى إنما تشيع فيه البركة.

وهذه هى فائدة الإيمان: ما يأمر به وما ينهى عنه.

وهذا أمر يختلف عن القانون الوضعى ؛ لأن عين القانون الوضعى قاصرة عما يخفى من أمور الناس فكأنها تحميهم من الوقوع تحت طائلته .. أما القانون الإلهى فهو محيط بأحوال الناس المعلنة ، والخافية .

---

(١) جاءت التاء فى (بقيت) فى رسم القرآن مفتوحة التاء، قال الزركشى فى «البرهان ١/ ٤١٣» : «مدت تاؤه، لأنه بمعنى ما يبقى فى أموالهم من الربح المحسوس، لأن الخطاب إنما هو فيها من جهة الملك».